التحليل والتوضيح المنطقي للأفكار، ومهمة الفلسفة تقتصر على تحليل معارفنا بغية الوصول إلى الوضوح، والتفرقة بين الأفكار التي لها معنى والأفكار التي تكون خالية من المعنى.

خاصة أن اللغة عند فتجنشتاين هي الفكر، والفكر هو اللغة، فوجود أحدهما متعلق بالآخر ذلك أن اللغة عنده هي الوسيلة الحسية التي نعبر بواسطتها عن أفكارنا.

وفي المقابل نجد أن الفكر ينقل ويفهم ويعبر عنه بواسطة اللغة.

فنحن محكومون في أفكارنا وأفعالنا باللغة التي نعرفها.

هذا الموقف قائم على تحليل فتجنشتاين للغة الفلسفية وردها إلى قضايا مركبة تتحلل بدورها إلى قضايا بسيطة.

بهذا الموقف أبعد فتجنشتاين أي مبرر لقيام معظم الأنساق المعرفية والمذاهب الفلسفية التي كانت تفسر الطبيعة والحياة بنظرة أحادية مبنية على أساس شمولي.

ويرى فتجنشتاين إن الألفاظ الكلية "الإنسان مثلاً" كثيرًا ما تسبب لبسًا لأن الفلاسفة لم يميزوا بينها وبين الأسماء التي تدل على أشياء موجودة بالفعل، لا بل اعتبروا أن الكليات تشير إلى موجودات في الواقع الخارجي. ففي هذا التصور نجد أن وظيفة اللغة هي وظيفة تصويرية تقريرية تتجه إلى العالم الخارجي وتحاول رسمه والتعبير عنه.

والعبارات التي لا تعبر عن الواقع الخارجي أو تشير إليه هي عبارات لا معنى لها.

وبناء عليه فإن العبارات ذات المعنى، يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة.

فلم يجد فتجنشتاين أي مبرر لكثير من القضايا التي تناولتها الفلسفة فمعظمها كتبت عن أمور فلسفية ليست كاذبة فقط بل هي خالية من المعنى.

هذا الموقف الحاد موجه بالأساس إلى موضوعات ومسائل الميتافيزيقا، بحجة أنها قضايا بلا معنى ولا تشير إلى الواقع.

لكن فتجنشتاين كان يعلم أن موقفه هذا مجرد حديث ميتافيزيقي لا يمثل المعنى الحقيقي الذي يرجوه عن مشكلات الفلسفة والواقع.

لهذا السبب نجد أن فتجنشتاين يقرر في النهاية إلى أن لكل لفظ من ألفاظ اللغة معاني مختلفة تتبدل بحسب السياق أو الاستخدام. خصوصًا أن هناك بعض الكلمات لا يتحدد معناها بواسطة الاستخدام، فيصبح المعنى عنده نوعًا من الكشف والإلهام.

لذلك لا يمكن الإفصاح عن التجربة الفلسفية من

> ويرى فتجنشتاين إن الألفاظ الكلية "الإنسان مثلاً" كثيرًا ما تسبب لبسًا لأن الفلاسفة لم يميزوا بينها وبين الأسماء التي تدل على أشياء موجودة بالفعل، لا بل اعتبروا أن الكليات تشير إلى موجودات في الواقع الخارجي. ففي هذا التصور نجد أن وظيفة اللغة هي وظيفة تصويرية تقريرية تتجه إلى العالم الخارجي وتحاول رسمه والتعبير عنه.

خلال عنصر الفهم بعيدًا عن ثوب اللغة، ولا مجال لوجود الموقف الفلسفي دون تشكيل الخطاب المعلن عن الحضور.

بل إن النشاط الفلسفي في معظم أجزائه قائم على رغبة ملحة للإقناع عن طرق بسط المفاهيم، ومن ثمة فإن حضور اللغة يعني الوجود بكل أبعاده.

كل ذلك مرده اللغة بحجة إنها الوسيلة الوحيدة التي نتعرف من خلالها على الأشياء.

فالعالم في نظره سيبقى مغلقًا غامضًا ما لم نعمد إلى توضيحه من خلال اللغة.

ما تقدم يكشف لنا صعوبة وغموض كتابه "رسالة منطقية فلسفية" هذا الكتاب الذي بلغ من الغموض حدًّا جعلنا لا نفرق فيه بين المعنى وغيره أو بين الكشف والاستخدام.

لقد بدأ فتجنشتاين كتابه لا بتحليل اللغة بل بتحليل العالم لأن العالم منطقيًا أسبق من اللغة التي هي رسم وتصوير لوقائع العالم، وقرر فيه أن صدق قضايا اللغة يتوقف على قدرتها في كشف العالم.

ذلك لأن مشكلات الفلسفة تنبع برأيه من سوء فهمنا لمنطق اللغة.

وبالتالي الفهم الصحيح لمنطق اللغة يفتح الطريق لحل العديد من المشكلات الفلسفية.

وينتهي فتجنشتاين إلى أن القضايا المطروحة في كتابه ليس لها معنى ولكنها تحقق النفع والفائدة لأنها تجعلنا نرى العالم بطريقة صحيحة وذلك بعد تجاوزها، فهي مجرد لوحات تعليمية نقرؤها ونفهمها ثم نحذفها. خاصة ان هذا الكتاب أثر فيما بعد في تيارات فكرية عديدة أهمها الوضعية المنطقية مما يعني أن قضاياها ليست مجرد لغو فارغ من المعنى.

فالكتاب هو حديث عن العالم وتحليله إلى لغة وتحليل اللغة إلى قضايا.

وبالتالي فإذا أردنا تطبيق ذلك على الكتاب نفسه باعتباره حديث فلسفي ميتافيزيقي، سنصل إلى أن قضاياه بلا معنى لأنه ليس هناك ما يقابلها في الوجود الخارجي فتصبح لغوا أو فرضيات ميتافيزيقية.

لقد تأكد لنا من طرح فتجنشتاين أن الفيلسوف مثل المنطقي حين يريد التأكد من قضية معينة فإنه يحيل صدقها أو كذبها من خلال مطابقتها أو عدم مطابقتها للواقع.

هذا التحليل عند فتجنشتاين في نظريته التصويرية للغة يمكن التعبير عنه بقولنا "القلم موجود فوق الطاولة" فإننا نكون هنا قد عينا وجود القلم فوق الطاولة وجودًا فعليًا، مما يعني هذا إننا أحدثنا تطابقًا بين وجود القلم الفعلي والعبارة الدالة على هذا الوجود.

أي أن هذه القضية ليست سوى نتيجة للواقعة الخبرية متطابقة مع العبارة الدالة عليها. وبهذا المعنى، يمكننا أن نعبر عن التطابق بين القضية التي تقال وبين الواقع الخارجي.

لهذا من يتأمل كتاب فتجنشتاين سيجد تمييزًا دقيقًا بين ثلاثة أنواع من القضايا:

1 – القضايا التي لها معنى.

2 – القضايا الخالية من المعنى.

3 – القضايا المجردة.

فالأول يخص العلم، والثاني يخص المنطق، والثالث يخص الفلسفة.

كما أن فتجنشتاين كان مهتمًا بإظهار أن قضايا المنطق الصوري لا تفيد معلومات عن العالم ولكنها قادرة وبطريقة مهمة على أن تفسر القضايا التي تفيد معلومات عن العالم.

فهي لا تثبت وقائع وإنما تصحح سوء استخدامنا للوقائع.

لقد شجع هذا فتجنشتاين على اعتبار تحليل المعاني ليس على أنه تحليل مفاهيم مركبة إلى المفاهيم البسيطة المكونة لها بقدر كونه تحليل القضايا المركبة إلى عناصرها البسيطة أي إلى القضايا الذرية أو الخالية من الروابط.

وانطلاقًا من هذه الفكرة قام فتجنشتاين بتحليل لبنية اللغة ولعلاقتها بالحقيقة فتبين له أن الحقيقة هي مجموع ما يحصل وليس مجموع الأشياء القائمة في العالم على وجه الحقيقة.

مأزق "فان ديك" بين النص والخطاب

محمد أزرار
المغرب

إن كلمة مأزق توحي بوجود شرخ أثناء التعاطي مع قضية ما، أو معالجة معضلة ما، مما خلف شرودًا نتج عنه عدم الانتباه إلى شيء معين، ووجب التنبيه أن اللساني "فان ديك" يقام عليه هذا الحد، وإن كان الأمر بشيء من النسبية، إذ سقط في نوع من الخلط برهة وضع حدود بين النص من جهة والخطاب من جهة أخرى، وافتقد لشيء من الدقة أثناء إنجازه لتلك الحدود.

وتعد ثنائية النص والخطاب جدلية ذات سيرورة نتاجية مازالت سارية المفعول ولم ينضب لها معين بعد، وقبل العرض للكوة التي خلفها الرجل، حري بنا أن نعرض لتصوره في صدد التمييز بين النص والخطاب، ولما كان الأشياء تعرف بضدها، أو بما هي هي، فالنص عند "فان ديك" لا يخرج عن هذا النطاق، عندما حدده انطلاقًا من مقابلته بالخطاب، بحيث تتعارض البنية الشكلية –الذهنية (و/أو النظرية) لأي إنتاج لساني مع الفعل المحين له، و من ثمة يوصف النص بكونه "البناء النظري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطاب"، وبالتالي فهوية النص تتحدد في كونه فعلاً ثابتًا يشكل القواعد التي تخضع لها الذات أثناء إنتاج فعل الكلام، في حين أن الخطاب عكس ذلك، إذ لا يعدو كونه ذلك التحقق الأنطولوجي للنص، يسمه طابع التغير من ذات لأخرى، وبالتالي فهو فعل تواصلي ووجود ثان للنص، أي انتقال النص من الصيغة المجردة إلى الصيغة الملموسة، وما يجب الأخذ به في طرح "ديك" هو كون النص مجرد والخطاب ملموس، وفي هذا الصدد تتظافر مجموعة من الأسئلة المربكة لخلخلة الطرح أعلاه، أبرزها، ما المجرد؟ ما الملموس؟ وإلى أي حد يكمن الأخذ بهذه الثنائية كمعيار للتمييز بين النص والخطاب كما أراد لها "فان ديك" ؟ إذا كان هذا الأخير حشر النص في ما هو ذهني ثابت، فما موقع الكتابة من هذا الثبات بعدها شرطا لتحديد النص؟ أهي ثابتة أم متغيرة؟ أين يمكن موضع الكتابة، أفي النص أم في الخطاب؟ ألم ينتبه "فان ديك" لهذا الأمر؟ ولم لم يقدم توضيحًا أو جسرًا فاصلاً بين ثبات النص في الكتابة و ثباته في الذهن؟.

إن مفهوم النص منذ ظهوره كإشكال في المشتل النقدي، وهو يعرف إقبالاً متواصلاً من لدن النظريات، حتى توزعت هذه النظريات دم النص كما توزعت الأيديولوجيات دم الفكرة، والترجمات دم المصطلح، و لعل أول منظر نصطدم به هنا هو عالم الاجتماع "روبيرت إيسكار بيت" الذي تعرض لمفهوم النص من خلال مقاربته ومقارنته بالخطاب، محددًا كلا منهما انطلاقًا من اللغة، لكن يختلفان في القناة، إذ يتخذ النص من الكتابة قناة له، والخطاب من الشفة قناة له، وبهذا فالنص كتابي القناة والخطاب شفهيها، وقد شكل هذا الفصل مرجعًا أساسًا عند جل النقاد، ولا يبتعد عن هذا "بول ريكور" حين يعرف الخطاب بكونه "نصًّا يتم تثبيته عن طريق الكتابة" وبالتالي فالكتابة شيء ثابت، وشرط أساس لتحقق النص، لكن ما يجعلنا نتساءل هنا، هو لما كانت الكتابة أيضًا ثبات للنص وهي شيء ملموس سيصبح النص هنا شأنه شأن الخطاب في عنصر الملموسية، إذا ما مدى نجاعة ثنائية المجرد والملموس في وضع حد بين النص والخطاب؟.

إن هذا السؤال يبرز بجلاء كون "فان دايك" قد سقط فعلاً في نوع من الخلط بين النص والخطاب، إذ أصبح يماثل بين الاثنين أكثر مما يقابل بينهما، إذ أن الكتابة بعدها شرطًا للنص كماهي عند "بيت وريكور" توصف بكونها ملموسة، والملموس بكونه ما يدرك بالحواس هو ضد المجرد الذي يدرك بالذهن، يصبح سمة أيضا للنص في جانبه الكتابي، وهو الأمر الذي لم ينتبه له "ديك" حينما حشر النص في الركن المجرد الذي يدرك بالذهن، ولم يتطرق لمسألة الثبات التي تجمع الذهن والكتابة، في هذا الاتجاه، إذا سلمنا بكون النص مجرد ثابت، فهو ثابت أيضا لدى "بيت" و"ريكور" لكنه ملموس و ليس مجرد.

ومما سبق فثنائية الملموس والمجرد تبقى قاصرة إلى حد بعيد عن وضع حد لمفهوم النص، ولتجاوز هذا المأزق يمكن القول أن ثنائية الكتابي والشفهي أكثر ما يصدق على النص والخطاب، وإذا أردنا تفعيل ثنائية المجرد والملموس كما أتى بها "فان ديك" فلا مندوحة من التنبيه أن النص والخطاب يشتركان في خاصية الملموسية.